توحّد الامم

(٥) — الاتحاد الامي العام

ولعلّ القارئ يعدّ الحكم على مستقبل الهيئة الاجتماعية تهوّراً لا يغتفر . ولكن اذا كانت الاحوال الحاضرة تهيّئ ذلك المستقبل والزمان الحالي يحبل به فلا بدع اذا حكمنا بتخصّصه به في الزمن القادم القريب او البعيد

واذا كان ناموس التجمع النظامي نافذاً منذ نشوء الحياة على الارض الى الآن في درجات متتابعة — الجواهر الفردة تجمعت في دقيقة . والدقائق تجمعت في خلية جرثومية . والخلايا الجرثومية تجمعت في جسم حيواني . والاجسام الخلوية المتنوعة في جسم مركب اي حيوان راقٍ . والحيوانات الراقية كالانسان تجمعت في عائلة . والعائلات تجمعت في قبيلة والقبائل تجمعت في امة عظمى ؟

اذا كان هذا الناموس عاملاً حتى الآن منذ القدم فلا ادري لماذا لا يستمر عاملاً الى المستقبل البعيد ما دام التعدد موجوداً

واذا دققنا في درس الحركات الاجتماعية الحاضرة رأينا فيها كثيراً من الامور التي تمهد السبيل لاتحاد الامم في امة واحدة وتهيء الالفة بين العناصر وتعد الوسائل اللازمة لذلك . بل نرى العوامل العاملة تدريجاً فيه والدلائل المبشّرة به . واليك اهم ما يلاحظ من المهيئات الممهدة لاتحاد الامم

وسائل الاتحاد العام الحاضرة

١ — وفرة المواصلات بين الامم في الاسفار ونقل الاخبار . ففي ايام لا في مستهل كما كان في عهد الاقدمين ؟ يمكنك الطواف حول الارض . وفيما انت جالس في مقعدك تطّلع على تفاصيل اهم حوادث العالم التي حدثت اليوم وعلى آراء كبار الناس على اثر نطقهم بها . وتقدر ان تعامل من شئت في اقاصي العالم في الحال فتبيع وتشتري وتدفع وتقبض . فسهولة المواصلات وسرعتها ووفرتها ربطت العالم بعضهُ ببعض ادبياً واقتصادياً . وهذا ارتباط اهم الشرائع واوفاها لاتحاد الامم

٢ — تفاهم الامم وتقاربها . فان سهولة المواصلات مهّدت السبيل لتعارف الناس وتعاملهم وتمازجهم وتزاوجهم على اختلاف جنسياتهم وتشاركهم في بعض العادات والاخلاق وملاشاة التباين بينهم تدريجاً . حتى اذا استمروا في هذا التمازج توحدت عاداتهم واخلاقهم

وتصوراتهم ومبادئهم وبالثاني تشتد الالفة بينهم وفي الرابط المكين لاتحادهم

٣ — انتشار المعارف الصحيحة بين الامم . فان الحقيقة متى عمّت الاذهان سكنت في قالب واحد وهذا السبك ضروري لتقوية الالفة بين الامم وبالثاني يجعل المدنية في مستوىً واحد . واستواء المدنية في جميع انحاء المعمور وسيلة اخرى لتقوية الالفة

٤ — الاتصال التجاري . فان العلائق التجارية المتبادلة بين الامم تقنع الناس بالتدريج ان مصالحهم ومنافعهم تكون اوفر جدًّا في حالة اتحادهم وان حقوقهم تكون اضمن بهذا الاتحاد

٥ — المؤتمرات . فان المؤتمرات التي يعقدها مندوبو الامم للبحث في الشؤون السياسية والاقتصادية والادبية والاجتماعية والطبية هي ذريعة فعلية لتفاهم الامم وتحالفها وتعاونها . واذكر اني قرأت في العام الفائت منشوراً من جمعية امية غرضها بث التعليمات والنصائح بين الامم لتفاهمها وتعارفها وتساهلها في الامور الادبية والسياسية وهذا المشروع ولا شك بدء خطوة فعلية في سبيل اتحاد الامم . ومهما ظهر هذا المشروع قليل الفائدة الآن فهو الجرثومة الاولى لذلك الاتحاد — وكل جسم كان في الاصل جرثومة صغيرة فنمت

٦ — تحالف العمال . ترى نقابات العمال في كل الممالك المتمدنة تتبادل المفاوضات وتتعاون في الاعتصابات حتى اذا حدث اعتصاب في مملكة نال المعتصبون اعانة مالية من الممالك الاخرى احيانًا . واحيانًا يتفق العمال في مملكتين او اكثر على الاعتصاب . وهذا التحالف هو خطوة كبيرة في سبيل تفاهم الامم وتحالفها وتعاونها . ولما كان العمال السواد الاعظم من الناس فتفاهمهم تأثير كبير في الاتحاد العام . وربما تمّ هذا الاتحاد على يدهم

٧ — التساهل في العقائد الدينية والنعرة الجنسية . فان التعصب الديني الذي كان يفرق العناصر بعضها عن بعض ويثير الحروب المدمرة بين الامم اخذ يقل تدريجًا حتى كاد يتلاشى النفور بين طائفة وطائفة . وبدلاً من ان تثار الحروب بسبب النعرة الدينية صارت تثار بسبب النعرة الجنسية . وبعد ان كان التعصب الديني سبب الويل على الهيئة الاجتماعية صار الوطن سببهُ . وسيزول هذا السبب ايضًا تدريجًا حين يصبح العالم كلهُ وطنًا واحداً والناس كلهم شعبًا واحداً او امة واحدة

فوائد الاتحاد العام * تلك اهم الوسائل المهدة للاتحاد الامي العام وهاك اهم فوائد هذا الاتحاد : —

١ — الاتحاد الدولي السياسي . فمن ذلك ان دول اوربا تجمعت في اتحادين — المحالفة الثلاثية بين المانيا والنمسا وايطاليا والوفاق الثلاثي بين فرنسا وانكلترا وروسيا — وسائر

الدول الاخرى منشطرة الى فريقين وكل فريق يحاز الى واحد من الاتحادين الدوليين . وقد رأينا حتى هذين الاتحادين يتفقان في بعض المواقف السياسية لأن بيد السلام كأن المصلحة العمومية تقودهما الى هذا الاتحاد . وقد يرى بنونا بعدنا الدول الاوربية كلها والاميركية ايضاً متحدة ضد الدول الشرقية التي يعبرون عنها الآن بالخطر الاصفر . وكذلك لا بد ان يرى احفادنا واحفاد احفادنا الاتحاد الشرقي والاتحاد الغربي يتقاتلان

٢ — الاتحاد الامي الاقتصادي . فاننا نرى الدول كلها قد اتفقت في اتحاد البريد العام حتى انهُ يتيسر لك ان ترسل رسالة او طرداً اوحوالة الى من تشاء في جميع الممالك المتحدة . وكذلك شبه الاتحاد التلغرافي العام اذ يتيسر لك أن ترسل رسالة برقية الى جميع البلاد العامرة . وترى شركات لنقل البضاعة الى كل الجهات . وشركات للملاحة متصلة بكل انحاء المسكونة . وشركات سكك حديدية تتخطى ممالك عديدة . وترى اتحاداً عاماً تقريباً في المعاملات المالية حتى انهُ يتسنى لك ان ترسل حوالة مالية الى حيث تشاء

وترى بعض الشركات التجارية والصناعية تملأ مدن العمور كشركة سنجر لآلات الخياطة والتطريز فان لها في كل مدينة في العالم فرعاً . وشركة التبغ الاميركية تطمع ان تحذو حذو شركة سنجر بان تكون تجارة التبغ في كل العالم لها وحدها

فهذه الاعمال العمومية وان كانت شخصية الى الآن فانما هي استعداد لذلك الاتحاد العام ولا بد ان تمر بتحولات عديدة حتى تصبح ملك الشعوب جميعاً . وامتلاك الشعب لها حق واضح لانها قائمة على اكتاف جميع افراد الشعوب

٣ — تعميم لغة امية . تسعى طائفة من الناس الى نشر لغة واحدة . ومصادفة هذا المشروع انصاراً عديدين يدل على شعور الامم بان في تعميم لغة واحدة للمعاملات اقتصاداً عظيماً في القوى والوقت والعمل . ويدل ايضاً على شعورهم بان تعميم لغة واحدة انما هو خير الذرائع لاتحاد الامم . وان كان هذا المشروع قد صادف الاخفاق مراراً فيما مضى فالرجوع اليهِ مرة بعد اخرى دليل على شعور الامم بالحاجة اليهِ ونجاحه كل مرة اكثر من الاخرى يبشر بنجاحهِ النهائي . والمشروعات الخطيرة التي ثبتت اخيراً صادفت في حياتها مثل ذلك الإخفاق المتكرر . وان سقطت لغة الاسبيرانتو كما سقطت قبلها لغة الفولابوك فلا بد ان تقوم بعدها لغة اشد منها ثباتاً الى ان تثبت اخيراً اللغة الصالحة

٤ — مشروع التحكيم الدولي . فان الدعوة الى هذا المشروع والى مشروع ابطال التسلح او تقليلهِ على الاقل تدل على شعور الامم بان مصلحتها تقوم بتصالحها وتفاهمها على قضية

السلم العام . واذا تراءى هذا المشروع الآن عقيماً فذلك لان افكار الامم لم تنضج لقبوله بعد . ومتى تفاهم العالم في كل العالم فقد لا تبقى للحكومات مندوحة عن التحكيم الاجباري لان الحروب قائمة على اكتاف العالم فهم يقومون فعلاً بنفقاتها وهم وحدهم يتحملون ويلاتها فمتى اتفقوا على ان يتأخوا فلا يبقى في طوق الدول ان تحارب

٦ — سر ناموس التجمع

فترى مما تقدم ان في حركات الهيئة الاجتماعية عوامل طبيعية متعددة تعمل معاً على تكييف الامم وسبكها في قوالب متشابهة حتى يمكن توافقها وتلاؤمها لكي يبني منها جميعاً جسم الامة العمومية العظمى . ونرى ايضاً ان هذا التوافق قد بدت طلائعهُ في بعض تلك الحركات

واما المحرك الاصلي لتلك العوامل فهو المصلحة الشخصية التي هي ام المصلحة العمومية . لانهُ متى صارت المصالح الشخصية متشابهة اصبحت مشتركة وهذا معنى انها عمومية . فالمصلحة الشخصية قائمة على النسبة المتكافئة بين القوة المبذولة والفائدة الحاصلة من جرّاء بذل القوة . فكلما قل بذل القوة وكثرت الفائدة كانت المصلحة الشخصية اوفر طبعاً . فالعامل الذي يشتغل عشر ساعات في اليوم لينال رزق اليوم اذا رأى انهُ باتفاقهِ مع عامل آخر يشتغل ٨ ساعات او اقل فيحصل رزق يومهِ فضّل الاتحاد معهُ . فاذا كانت مصالحهما متباينة اجتهدا في التوفيق بينهما

هذا مثل بسيط جداً ولكنهُ يمثل كل صورة من صور الاتحاد بين شخصين او اشخاص وبين جماعتين او جماعات

غير ناموس التجمع اذاً هو الاقتصاد في بذل القوة وتوفير الفائدة . وقبل التجمُّع تكون القوى متضاربة متعارضة يفني بعضها بعضاً . ولكن بعد التجمع تُدَّخر القوة في جسم الجماعة وينفق منها حسب اللازم

٧ — كيف يتم التجمع

ولا نود ان ننتهي من هذا المقال تاركين القارئ يتصوَّر ان اتفاق الامم واتحادها اصبح قاب قوسين او ادنى وان تحوُّل الامم او تكيفها حتى تتشابه وتتوافق امر سهل وبسيط . ليس الامر كذلك بل لا بد من ان تقاسي الامم آلاماً عديدة زمناً طويلاً قبل ان تبلغ الى ذلك الحد من التفاهم كما قاست الجماعات قبلها طويلاً حتى صارت امماً . فما فتئت الامم بسبب التقاليد القديمة عمياء عن وسائل اتفاقها ولا تزال تتلمَّس الحقيقة المشتركة تلمّساً ومتى اهتدت اليها اتحدت عندها

على أن ما امام الهيئة الاجتماعية الحاضرة من العقبات في سبيل توحيد الامم لاكثر واصعب جداً من العقبات التي كانت في سبيل الجماعات التي تألفت وكوّنت امماً وذلك لتعدد الاحوال التي تتقلب الامم فيها وتنوع مطامعها وتفرع اغراضها وتضارب مصالحها الى غير ذلك مما يجعل علائقها اكثر تعقداً من علائق الجماعات القديمة . ولكن قد يكون هذا التكيف اسرع من تكيُّف تلك الجماعات التي تحوّلت الى امم قياساً على ان الرقيّ اصبح الآن اسرع منهُ في ما مضى لتوفر وسائله

سنة التنازع لتقلص بامتداد ظل ناموس التجمع

لكن المغالين في سنة تنازع البقاء يصرون على الاعتقاد بان هذه السنة ستبقى نافذة الى ابد الآبدين ويزعمون انهُ ما دام الكون كوناً والناس ناساً فلا مناص من النزاع فيما بينهم . وحجتهم انهُ منذ وجد لآدم قابين وهابيل نشأ اطمام وبغي البنون بعدهم يتوارثونهُ حتى الآن وسيظلون يتوارثونهُ الى الابد . وعلى هذا الاعتقاد بني القول «ان التاريخ يعيد نفسه»

ولو صدق هذا القول السائر لكذب مذهب الارتقاء وصح زعم الزاعمين ان تمدن المتأخرين سبق اليه المتقدمون . في حين ان التاريخ الطبيعي والتاريخ الاثري والتاريخ السياسي وغيرها من علوم القدمية تبيننا بان ما هو كائن الآن لم يكن في قديم الزمان . واذا كانت دول قامت ثم دالت وقام بعدها دول ودالت مثلها فليس المعنى ان هذه جرت نفس الشوط الذي جرتهُ تلك تماماً بل لا بد من فرق كليّ بين الشوطين وتباين كبير بين الدولتين المتعاقبتين

فدولة الفراعنة قامت على اساس العقائد الدينية ودالت على هذا الاساس . والتاريخ يثبتنا ان دين المصريين كان سرّاً عمليًّا او ان علمهم كان سرًّا دينيًّا محصوراً في فئة الكهنة . واما دولة ازومان فقامت على اساس الملكية (الامبراطورية) السياسية ودالت على هذا الاساس ايضاً — وقد اعتورها الحكم الجمهوري في احد ادوارها اعتواراً لان الروح الديموقراطية لم تكن قد نضجت تماماً في امتها

ودول القرون الوسطى في اوربا قامت على اساس الحكم الاريستوقراطي (على سياسة الاقطاع) . ودول القرون الحديثة قامت على اساس الحكم الديموقراطي . والدول القادمة ستقوم على اساس المصلحة الاقتصادية لان «الحكم» بمعناهُ القديم يتلاشى تدريجاً وستقوم مقامهُ «الادارة» لان السلطة عائدة الى اهلها — والشعب مقرها الاصلي

كانت الحروب تثار بارادة الحكام القابضين على ازمّة السلطة المتنافرين بحكم المصلحة الشخصية فاصبحت تثار بارادة الامم بحكم المصلحة العمومية

لكل حالة من حالات الاجتماع تلد جرثومة فتمو لتصير حالة اخرى جديدة . فاذا دققت في درس تاريخ الحكم الديني القديم تجد فيه جرثومة الحكم السياسي . وفي تاريخ حكم الفرد المطلق تجد جرثومة حكم الاعيان الارستوقراطي وفي تاريخ هذا الحكم تجد جرثومة الحكم الذاتي الديموقراطي

قدمنا ان التاريخ لا يعيد نفسهُ كما هو وانما يعيد نفسهُ كل مرَّة في كتاب اضخم وفي صورة اجسم . فالعداوة التي كانت بين قابين وهابيل تلاشت تقريباً من بين كل قابين وهابيل بعدئذٍ وتحولت الى عداوة بين الاسرائيليين والفلسطينيين مثلاً . اي ان التنازع الذي كان بين الاخوين اخذ وقام مقامهُ التنازع بين الاسرتين ثم اخذ هذا وقام مقامهُ التنازع بين السبطين فالامتين . وهكذا كان ظل التنازع يتقلص حيثما ينبسط ظل التجمع وسيظل هذان متعاقبين الى ان يبقى النزاع مقصوراً على ما بين الهيئة الاجتماعية والطبيعة فقط

فلا ينتظر ان يطمئن العالم في سلم عام قبل ان تنهكهُ الحروب ولقنعهُ بالبرهان المحسوس ان عقبة التنازع بذل القوى جزافاً . ولا ينتظر ان تتفاهم الامم قبلَ ان تتناقش وتتجادل وتتلاعن . ولا ينتظر ان تتفق المصالح قبل ان يتألب الضعفاء على القوي ويستعيدوا منهُ بعض قوتهِ لكي يتوازن الافراد والجماعات في القوى . ولا ينتظر ان تم النظامات الاجتماعية وتتوحَّد قبل ان تستتب على حال . ولا تستتب على حال قبل ان تتغلب على احوال

فكلما اشتدَّ التنازع بين الامم قل انهُ قد حان زمن تفاهمها مرَّة . لانهُ بعد الحرب الجنونية تثوب الامم المتحاربة الى رشدها وتحاسب نفسها لتعلم كيف تضمن مصالحها بتوافقها

لا يمكن ان تُسبك الامم في قالب واحد قبل ان تتقمَّص مراراً كما يتقمَّص ميكروب الحمَّى الملارية خمس مرات في جسمي البعوضة والانسان . والتقمص يستلزم معاناة . فالدودة لم تصر فراشة لو لم تدفن نفسها في شرنقة من الحرير . وهكذا ستصادف الهيئة الاجتماعية في سبيل توحدها حياة وموتاً مراراً وقياماً وسقوطاً متعددين . وستمر شمس المدنية وراء غيوم وتظهر من وراء غيوم الى ان يحلوها الجو الصافي اخيراً . ولهذا لا تأمن الاجيال المتبلة ان تُرزأ بعصور مظلمة كما رزئت الاجيال التي قبلها . ولكن الظلمات المستقبلة ان حدثت ستكون اخف حكماً واقصر آجالاً

العالم يخطو الى الامام الى فوق . ولكن في اثناء خطواتهِ قد تمثر قدماهُ مراراً فتزلق الى الوراء قليلاً بيد انهُ لا يليث ان يثبت قدمهُ ويخطو الى الامام فاذا تعثر خطوة فلا بد ان يخطو بعدها خطوتين

نقولا حداد